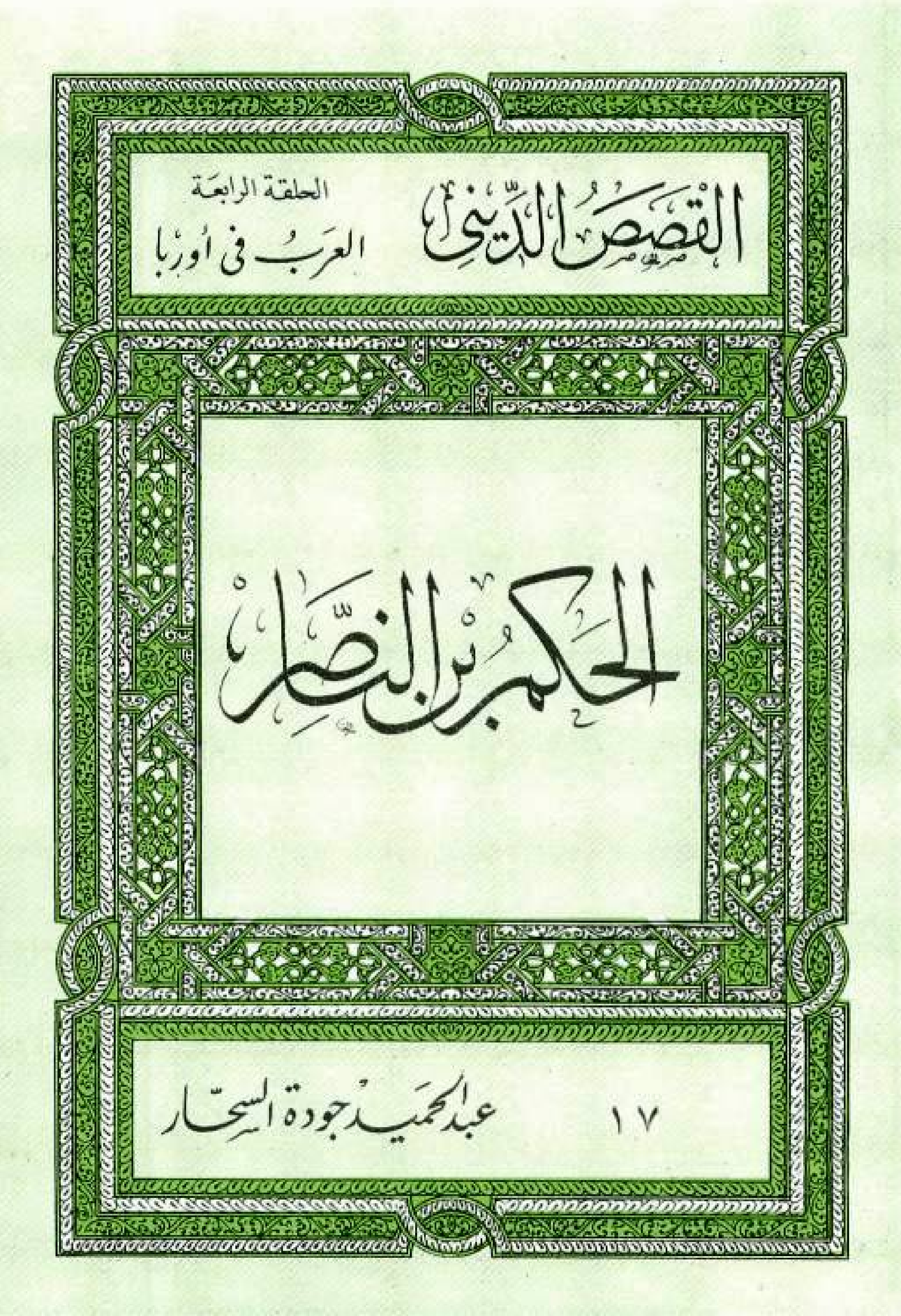

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب فى أوربا
الحكم بن الناصر
عبد الحميد جودة السحار
١٧

١

ماتَ النّاصِر ، فاعتلى الحَكَمُ المُستَنصِرُ باللّه سريرَ المُلك ، ثانِيَ يومٍ وفاة أبيه ، وبعثَ الكتبَ إلى البلادِ بتمامِ الأمرِ له ، ودعا النّاسَ إلى بيعَتِه ، وأوّلُ ما أخذَ البَيعةَ على صَقالِبةِ قصرِه ، وتكفَّلُوا بأخذِها على من وراءَهم وتحتَ أيدِيهم من طبقَتِهم .

وكَمَلَت بَيعَةُ أهلِ قصرِه ، وأمَرَ عظيمَ دولَتِه جعفرَ بنَ عُثمانَ المُصحَفيّ ، بالإسراعِ إليه بأخيه أبى مَروانَ عُبيدِ اللّه المُتخَلّف ، لِيُبايعَه على الخِلافة ، وأرسلَ عَظيمًا آخرَ للإتيان بشَقيقِه الثّانى . ونفّذَ غيرَهما من وجوهِ الرِّجالِ فى الخيل ، لإتيانِ غيرِهما من الإخوة ، وكانوا يومئذٍ ثمانية ، فوافَى جميعُهم

الزَّهراءَ فى اللَّيل .

وفى الصَّباح ، قعَدَ المُستنصِرُ باللّه على سريرِ المُلك ، فى البَهو الأوسط ، من الأبهاء المُذْهَبةِ القِبلِيَّة ، التى فى السَّطحِ المُمَرَّد ؛ فَدَخَلَ إخوَتُه عليه ، فكانوا أوَّلَ المُبايِعين ؛ وأنصَتُوا لصحيفةِ البَيعة ، والتَزَمُوا الأَيمانَ المنصوصة ، لكلِّ ما انعَقَدَ فيها ، ثمَّ بايَعَ بعدَهم الوُزراء ، وأولادُهم وإخوَتُهم ، ثم أصحابُ الشُّرطة ، وطبقاتُ أهلِ الخِدمة ؛ وقَعَدَ الإِخوَةُ والوزراءُ والوُجوهُ عن يمينِه وشِمالِه .

واصطَفَّ فى المجلِسِ أكابرُ الفِتيان يمينًا وشِمالاً ، إلى آخرِ البَهو ، كلٌّ منهم على قَدْرِه فى المنزِلة ، عليهمُ الظَّهائِرُ البِيض ، شِعارُ الحُزنِ فى الأندَلُس ، فقد أُعلِنَ الحِدادُ لموتِ عبدِ الرَّحمنِ النَّاصِر ، أعظمِ من حكَمَ الأندَلس .

اصطفَّ الفِتيانُ الصَّقالِبةُ الخُصيْان ، وقد لَبسُوا البَياض ، بأيدِيهمْ السُّيوف ، يتَّصِلُ بهم مَن دُونَهم من طبقاتِ الفِتيانِ الصَّقالِبة ؛ ثمَّ تلاهُم الرُّماةُ متنكِّبِينَ قِسِيَّهم وجِعابَهم ؛ ثمَّ وَصَلَت صُفوفُ هؤلاء الخُصيانِ الصقالبة ، وصفوفُ العبيدِ الفُحول ، شاكية فى الأسلِحةِ الرَّائقة ، والعُدَّةِ الكامِلة ؛ وقامَتِ التَّعبئَةُ فى دارِ الجُند : العبيدُ عليهم الجَواشِنُ والأقبيةُ البيض ، وعلى رُءوسِهمُ البَيضاتُ الصَّقْلَبِيَّة ، وبأيدِيهم التِّراس الملوَّنة ، والأسلحة المُزيَّنة .

وعلى بابِ السُّدَّةِ الأعظم ، البوَّابونَ وأعوانُهم ؛ ومن خارجِ بابِ السُّدَّةِ فُرسانُ العَبيد ، إلى بابِ الأقباء ، واتَّصلَ بهم فُرسانُ الحَشم ، وطبقاتُ الجُندِ والعَبيدِ والرُّماة ، موكِبًا إثرَ مَوكِب ، إلى بابِ المَدينةِ

الشّارعِ إلى الصّحَراء .

وتمّتِ البَيعةُ للحكَم ، فَأُذِنَ للناسِ بالانصراف ، إلاّ الإِخوةَ والوزراءَ وأهلَ الخِدمة ، فإنّهم مكَثُوا بقصرِ الزّهراء ، ليحتَمِلوا جَسَدَ النّاصِر ، إلى قَصرِ قُرطُبة ، ليَقبُروهُ فى تُربَةِ الخُلفاء .

٢

ماتَ النّاصِر ، فطَمِعَ الجَلالِقَةُ فى الثُّغور ، فغزاهُمُ الحَكَمُ بنفسِه ، وفَتحَ سنْتَ استيبانِى عَنوة ، واستَباحَها . ثم عادَ إلى قُرطُبة ، وبعثَ قائِدَه ومَولاهُ غالبًا النّاصِرىّ ، إلى بلادِ جلّيقِيَّة . فانطلَقَتِ الجُيوشُ الإِسلاميَّةُ إلى مدينةِ سالِم ، الواقِعةِ على رافدٍ من روافِدِ نهرِ طرطُوشَة . وعلِمَ الجَلالِقةُ بخروجِ غالِب ، فجمَعُوا له الجُموعَ ، وسارُوا للقائِه ، وما إن التقَى

الجَمعان ، حتّى انهزَمَ الجلالِقة ، ونصَرَ اللّهُ غالِبًا نصرًا مُؤَزَّرا .

رأى أُردُون ، المُتَمَلِّكُ على طوائِفَ من الأُمم الجلالِقة ، والمُنازِعُ لابنِ عَمِّه حنسو (شانجه) ، الذى ارتبطَ بمعاهَدةٍ مع النّاصر ، نصرَ غالب ، وبلَغَه اعتزامُ الحَكَمِ على غزْوِ بِلاده ، فقرَّرَ المَسيرَ إلى بابِ الحَكَم ، غيرَ طالِبِ إذن ، ولا مُستَظهِرٍ بعهد .

خرجَ أُردونُ فى عِشرِينَ رجُلا من وجوهِ أصحابه ، وقابَلَ غالبًا ، والتمَسَ منه أن يذهَبَ به إلى الحَكَمِ مَولاه ، فسارَ غالبٌ وأُردونُ وأصحابُه إلى قُرطبة ، وبلغَ الحَكَمَ مسيرُهم نحوَه ، فأرسَلَ كتِيبَةً من الحَشَم ، لتِلْقَى غالِبًا النّاصِرىَّ .

ونزلَ أُردونُ وأصحابُه قُرطُبة ؛ وفى ثانِى يومِ نُزولِهم ، أرسلَ إليهمُ الحَكَمُ جيشًا عظيما كامِلَ

التّعبئة ، تحرّكَ بهم إلى القَصر ، فلمّا بلغَ أُردونُ باب السُّدَّة ، وباب الجنان ، سأل عن مكانِ قبرِ النّاصِر ، فأشِيرَ إلى ما يُوازِى موضِعَه من داخِلِ القَصْرِ من الرَّوضة ، فخلَعَ قَلَنْسُوَتَه ، وخَضَعَ نحوَ مكانِ القَبرِ ودعا ، ثمَّ رَدَّ قلَنسُوته إلى رأسه .

بقى أُردونُ يومَ الخميسِ والجُمعةِ ينتظِرُ الإِذنَ له بالمُثولِ بين يدى الحاكِم ، وفى يومِ السَّبت عُبِّىءَ الجيش ، وأُقيمَ التّرتيب ، لاستقبالِ أُردون ، فقعَدَ المُستَنصِرُ باللّه على سرير المُلك ، فى المجلِس الشَّرقىّ من مجالِسِ السَّطح ؛ وقعَدَ الإِخوةُ وبنوُهم والوزراء ؛ وجِىءَ بأُردونَ وقد لَبِسَ ثوبًا دِيباجيًّا روميًّا أبيض ، وعلى رأسِه قَلَنْسُوَةٌ روميّةٌ ، منظومةٌ بجوهر ، وقدْ حَفّته جماعَةٌ من نصارَى وجوهِ الذِّمَّةِ بالأندلُس ، يؤنِسُونَه ويُبَصِّرُونَه ، فيهم ولِيدُ بن خَيزُون ، قاضِى

النّصارَى بقُرطُبَـة ، وعبيـدُ اللّـه بـنُ قاسـم ، مُطـرانُ طُليطُلة ، وراحوا يتقَدَّمونَ على جيادِهم .

دخلَ أُردونُ بينَ صَفّى الجُند ، يُقَلّبُ الطّـرفَ فـى نَظْمِ الصُّفوف ، ويُجيلُ الفِكـرَ فـى كَثْرَتِهـا ، فَراعَـه مـا رأى . وصـلَ إلى بـابِ الأقبـاء ، أوّلِ بـابِ قصـرِ الزّهراء ، فترَجّلَ الجَميع . وتقَدّمَ المَلِكُ أُردونُ علـى جَوادِه ، حتّى انتهى إلى بابِ السُّدّة ، ثـمّ سارَ على جوادِه ، فلمّا وَصَلَ إلى البَهـوِ الأوسطِ من الأبهاءِ القِبلِيَّة ، التى بدارِ الجُند ، نزَلَ على كُرسيٍّ مرتَفِـع ، مكسُوِّ الأوصـالِ بالفِضَّـة ، حيـثُ نـزَلَ قَبلَـه عـدُوُّهُ ومُناوِئُـه حَنسُـو (شـانجه) ، الوافِدُ علـى النّـاصر ، يُعاهِدُه ويطلُبُ حِمايَته ونصرَه .

٣

وخرجَ الإذنُ لأُردونَ الملِكِ من الحَكَمِ المُستنصرِ باللّه ، بالدُّخولِ عليه ؛ فتقَدَّمَ يمشِي ، وأصحابُه يَتبَعُونَه ، إلى أن وصل إلى السَّطْح ، فلمَّا قابَلَ المجلسَ الشَّرقيّ الذى فيه الحَكم ، وقَفَ وكشفَ رأسَه ، وخلَعَ بُرْنُسَه ، وبَقِيَ حاسِرا ، إعظامًا لما بانَ له من الدُّنُوّ إلى السَّرير . واستُنهِضَ ، فمضى بينَ الصَّفّينِ المُرَتّبَينِ فى ساحَةِ السَّطح ، إلى أن قَطَعَ السَّطح ، وانتهى إلى بابِ البَهو .

وقابَلَ السَّرِير ، فخرَّ ساجِدًا سُويَعَة ، ثمَّ نَهَضَ خَطوات وعادَ إلى السُّجود ، ووالَى ذلكَ مِرارًا ، إلى أن قَدِمَ بينَ يدىِ الخَليفة ، ومالَ إلى يدِه ، فناوَلَه

إيَّاها ، وكرَّ راجعًا مُتقهقِرًا على عَقِبَيه ، إلى وِسادِ دِيباج مُثْقَل بالذَّهب ، جُعِلَ له هُناك ، وَوُضِعَ على قَدرِ عشرةِ أذرُع من السَّرير .

جلسَ أُردونُ على الوِساد ، والبَهْرُ قَد علاه ؛ ووصَلَ وليدُ بنُ خَيزون ، قاضِى النّصارَى بقُرطُبة ، فكانَ التَّرجُمانَ عن الملِك أُردُونَ ذلك اليوم ، فأطرقَ الخَليفةُ الحكَمُ عن تكليمِ أردون وقتًا كَيما يهدَأ ، ثمَّ قال الحكَم :

ـ ليَسُرَّكَ إقبالُك ، ويُغبطكَ تأميلُك ، فلدينا لك عن حُسنِ رأيِنا ، ورَحبِ قَبولِنا ، فَوقَ ما قَد طلَبْتَه .

فلمَّا تُرجِمَ له كلامُه إيَّاه ، تطلَّقَ وجه أُردون ، وقبَّلَ البِساط ، وقال :

ـ أنا عبدُ أمير المؤمنين ، فحيثُ وَضَعَنى من فَضلِه ، وعوَّضَنى من خِدمَتِه ، رجوتُ أن أتقدَّمَ فيه

بنيَّةٍ صادِقة ، ونصيحةٍ خالِصة .

فقال له الخليفة :

ـ أنتَ عندَنا بمحَلٍّ من يستَحِقُّ حُسنَ رأينا ، وسينالُكَ من تقديمِنا لك ، وتفضيلِنا إيَّاك على أهلِ مِلّتِك ، ما يُغبِطُك ، وتتعَرّفُ به فضلَ جُنوحِك إلينا ، واستظلالِكَ بظلِّ سُلطانِنا .

فعادَ أُردونُ إلى السُّجود ، وابتهَلَ داعيًا وقال :

ـ إنَّ حنْسو « شانجة » ابنَ عمِّي ، تقدَّمَ إلى الخليفةِ الماضى مُستَجيرًا به منّى ، فكانَ من إعزازِه إيَّاه ، ما يكونُ من مِثلِه من أعاظِمِ المُلوك ، وأكارِمِ الخُلفاء ، لمن قَصَدَهم وأمَّلَهم ، وكان قَصَدَهُ قصْدَ مُضطَرّ ، قد كرِهَتْه رعِيَّتُه ، وأنكَرَت سِيرَتَه ، واختارتْنى لمكانِه ، من غير سعيٍ منّى ـ علِمَ اللّه ذلك ـ ولا دعاءٍ إليه . فخَلَعَتْه وأخرجَتْه عن ملكِه ،

مضطرًّا مُضطهَدا ، فأنعَمَ عليه ـ رحِمَه اللّـه ـ بأن صَرَفَه إلى مُلكِه ، وقوَّى سُلطانَه ، وأعَزَّ نَصرَه ، ومعَ ذلك فلمْ يقُم بفرضِ النِّعمَة التى أُسدِيَتْ إليه ، وقصَّرَ فى أداءِ المفروضِ عليه ، وحقِّه وحقِّ مولاى أمير المؤمنينَ من بعدِه .

وظلَّ أُردون يتودَّد ، ويُزكِّى نفسَه ، ويلتَمِسُ رضا الحَكَم ، حتَّى وعَدَه الخليفةُ بالنصر ، فكرَّرَ أُردُونُ الخُضوع ، وأسهَبَ فى الشُّكر ، وقامَ بالانصرافِ مُقَهْقِرًا ، لا يُوَلِّى الخليفةَ ظهرَه .

٤

وبعثَ ملِكا بَرشَلُونة وطرَّكونة ، يسألانِ تَجدِيدَ الصُّلح ، وإقرارَهُما على ما كانا عليه ؛ وبَعثا بهَديَّة ، وهى عشرونَ صَبِيًّا من الخُصيانِ الصَّقالِبة ،

وعشرونَ قِنطارًا من صوفِ السَّمُّور ، وخمسةُ قناطِيرَ من القصدِير ، ومائتا سيفٍ إفرنجيَّة . فتقبَّلَ الحكَمُ الهَديَّة ، وعَقَدَ لهم على أن يهدِمُوا الحصونَ التى تضُرُّ بالثُّغور .

وتمَّ الصُّلحُ بينَ الحكَم وملوكِ الفِرنج ، فساءَ ذلك أصحابَ الجهاد ، وأخذَ قُوَّادُه ووزراؤه يحُثُّونَه على نقْضِ الصُّلْح ، فالتفتَ إليهم ، وقال :

« وأوفُوا بالعَهدِ ، إنَّ العَهدَ كانَ مَسئُولاً » .

وعَكَفَ الحَكَمُ على خِزانةِ كتبه ، يقرأ ما شاءَ له شغفُه بالعُلوم ، وكان ذا غرام بالكتب ، حتَّى آثرَها على لذَّاتِ المُلوك ، فجمعَ من الكتب أربعةَ آلافِ مُجَلَّد ، وكان يستجلِبُ المُصنَّفاتِ من الأقالِيمِ والنَّواحِي ، باذلاً فيها ما أمكنَ من الأموال ، حتى ضاقَتْ عنها خزائِنُه .

واصطفى الحَكَمُ جَعفَرَ بنَ عثمانَ المُصحَفِيّ ، فاستوزَرَه ، فكانَ أذُنَه التي يسمَعُ بها ، وعينَه التي يرى بها . واستفحلَ أمرُ المُصحَفِيّ ، فصارَ الحاكمَ الناهيَ في الدولة ، يُصَرِّفُ أمورها ، ويسوسُ رعيَّتها ، والحَكَمُ غارقٌ في كُتُبِه ، فقد مارَسَ الحُكمَ في زمانِ أبيه ، صدرَ ولايَتِه ، فزَهِدَ فيه .

وأحبَّ الخليفةُ جاريَته صَبيحة (صُبْح) ، وكانت حَسنةَ الصَّوت ، فكانَ يُمضِي السَّاعاتِ يُصْغِي إلى صوتِها الحَنون ، يتجاوَبُ في أرجاءِ قصرِ الزَّهراءِ بقُرطُبة . ووضَعَتْ له هِشامًا وليّ عهدِه ، فرفَعَها من جاريةٍ جاءَت من البَشْكَنْس إلى أميرَةِ قُرطبة(١) ، وأُمِّ ولِيِّ العَهد ، وصارتْ تُدِيرُ أمورَ الدَّولةِ هي والمُصحَفِيّ .

---

(١) اقرأ أميرة قرطبة للمؤلف .

٥

ومَرِضَ الحَكَمُ ، ولَزِمَ فِراشَه ، وكانَ حِصْنُ فركَنْسِيت فى قَلبِ فرنسا ، قد وقَعَ فى أيدى العَرب ، من أكثرِ من ثمانِينَ سنة ، وكان مركزَ جميعِ العربِ المنَتشرينَ فى فرنسا وشَمالِىِّ إيطاليا وفى سويسرة ، وقد رأى غليومُ كُونت بروفَنْس ، أنَّ الفُرصةَ سانحةٌ لطردِ العربِ من فَرنسا ، فاستَنفَرَ أهالِى بروفَنْس ، ودوفينى السُّفلَى ، ونيس ، لقتالِ العرب ، فلبّوا نداءَه ، واجتَمَعَ له جيشٌ جَرَّار ، انطلَقَ إلى فَركنْسِيت ، معقِلِ العربِ الحَصين .

وعَلِمَ العربُ أن أهالى البلاد ضَيَّقُوا عليهم من كل جانب ، فنزلُوا من جبالهم وساروا إلى « دارجنمان » ، ودارت معركَةٌ رهيبةٌ بينَ العربِ

وجيوشِ غليوم فى « تورتور » ، انهزَمَ فيها العرب ، فثارَ الأهالى عليهم ، وراحُوا يقتفُونَ أثَرَهم ، ويقتُلونَ كلَّ مَن يقَعُ فى أيديهم .

وفرَّ بعضُ النّاجينَ من المسلمينَ إلى الأندلس ، وركِبَ بعضُهم البحر ، وذهبُوا إلى سَردينية ، وكانت فى يدِ المُعِزّ لدِينِ اللّه الفاطِمىّ ؛ وكانَ المعزُّ قابِضًا على زِمامِ الجزيرة ، قبل أن يتحرَّكَ لفتحِ مصر .

وماتَ الخليفةُ الحكَم ، وقد تركَ ابنَه هِشامًا ولمَّا يبلُغِ الحُلُم : فتقلَّدَ الأمورَ المنصورُ بنُ أبى عامِر ، وكانَ آيةً باهِرَةً فى البَسالَة والإقدام ، وحُسنِ التّدبير . فعزَمَ على أن يُعِيدَ للإسلامِ رَونَقَه الأوّل ، وأن يَبُثّ الغاراتِ فى أطرافِ بلادِ الفِرنجة ، وأن يحمِلَ الرّايةَ الإسلامِيَّةَ إلى بلادٍ لم تخفُقْ فيها قبلَ تقلُّدِه لأمورِ الأندَلُس .